فقه معاني الهدى

في فضل الصيام والقيام بالقرآن

أ.د. محمود توفيق محمد سعد(*)

لمّا كانَ ابنُ آدمَ خطّاءً كانَ بحاجةٍ إلى ما يَقِيه ما يترتّبُ على حالِه هذا في مَسيرِه في الدُّنيا، ومَصيرِه في الآخرة.

وكانَ مِن فَيْضِ رحمةِ اللهِ -سُبْحانَهُ وبحمْدِه- أنْ جعلَ لهُ ما يرفعُ عنْهُ آثارَ حالِه هذا، فجعلَ لهُ (التَّوْبَةَ) النَّصوحَ سَبيلاً إلى الوقايةِ مِن آثارِ حالِه الّذي فُطِرَ عليْه، فهي الوقاءُ لهُ مِن السُّوءِ في الدّارَيْن.

وجعلَ اللهُ -سُبْحانَهُ وبحمْدِه- التَّوبةَ النّصوحَ لا يحتاجُ العبدُ للقيامِ بها على الوجهِ المُسْتَرضى إلى واسِطةٍ بيْنَ اللهِ -سُبْحانَهُ وتَعالَى- وبيْنَ العبدِ التّائبِ، كما هو قائمٌ في غيرِ الإسْلامِ.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (النّساء:١٧)

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (التحريم: ٨)

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (بَابٌ فِي الْحَضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا) بسندِه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضِيَ اللهُ عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ، إِذَا وَجَدَهَا»[١٦].

وَجَعَلَ لَهُ سَبيلاً آخَرَ يَعْصِمُهُ فِي الآخِرةِ مِن عُقْبَى مَا وَقَعَ فِيه فِي الدُّنْيا: جَعَلَ لَهُ (الصِّيامَ) و(الْقرآنَ) شَفِيعيْنِ لَهُ.

رَوَى الإمامُ أحمدُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي مُسْنَدِه بسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١٦) صحيح مسلم، برقم: (٢٦٧٥).

أنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى الله وسلّم عَليْهِ وعَلى آله وصَحبِه قال:

«الصِّيامُ وَالقُرْآنُ يَشفَعَانِ لِلعَبدِ يَومَ القِيامَةِ: يَقُولُ الصِّيامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»(١٧).

حثَّ سيِّدنا رسُولُ اللهِ -صلّى الله وسلّم عَليْهِ وعَلى آلِه وصَحبِه- بأسلوبٍ إنْبائيٍّ لا طَلبِيٍّ كُلَّ مُسْلِمٍ فِي هذَا الحَديثِ على أنْ يَكونَ له مِن هاتَيْنِ العِبادَتَيْنِ: الصِّيام فريضةً ونَفيلةً، وترتيلِ القُرْآنِ فِي قيامِ الليلِ نفيلةً نصيبًا مَوْفُورًا، لِيكُونا لَهُ شَافِعَيْنِ عِنْدَ رَبِّهِ -سُبْحانَهُ وبِحمْدِهِ-.

وفي اصْطفاءِ الأسلوبِ الإنْبائيِّ تثويرٌ للمتلقي؛ ليكونَ عِندَ حُسْنِ ظَنِّ مَن يُخاطِبُه، فالمُبِينُ بالخَبَرِ فِي مِثْلِ هذَا المَقامِ التَّثويريِّ إِلَى الْحُسْنَى يُوحِي لِلْمُتلقِّي أنَّهُ قد بلغَ عندَهُ مَنزِلًا عَليًّا فِي الإسْراعِ إِلَى العَملِ الصَّالِحِ المُصْلِح، مَا إِن يَسمَعُ بِهِ إِنْباءً إلا وسَارَعَ إِلَى أن يَكُونَ مِن دَيْدَنِهِ، فهُو لا يَحتاجُ إِلَى أَن يُطْلَبَ مِنهُ الفِعْلُ. هُوَ لَا يُسْتَنْفَرُ بالطَّلبِ، كلّا هُو لا يَحتاجُ إلا إِلَى تَذكِيرٍ بِالخَيْر، فيُحِيلَه بِمجرَّدِ سَماعِ الذِّكْرَى أوْ مُشاهَدَة مَن يَصْنَعُ الْخَيْرَ إلى واقعٍ مَشْهودٍ، فيَجْتمِعُ الإنباءُ مِنَ المُبِينِ، والوَاقِعُ مِن السَّامِعِ، وَهَكَذَا يَكُونُ التَّكافُلُ وَالتَّعاوُنُ عَلَى الْحُسنَى، وَفِي هَذا لَفتٌ لِلْمُتلقّي إلى أنّهُ فِي مَحلّ الظَّنّ الحَسِينِ مِن المُبِينِ، فلَا يَسَعُ المخاطب إلّا أن يَكونَ عِندَ حسْن ظَنّ المُبِينِ فِيهِ، وَذلِك مِن شَأنِ ربّ العالمين، فهو - سُبْحانَهُ وبِحمْدِه - عِنْدَ ظَنّ عبْدِه به.

كان سَيّدُنا رَسُولُ اللهِ -صَلّى اللهُ وسلم عَليْه وعَلى آلِه وصَحبه- حريصًا على أن يَتمكَّنَ المَعنَى الَّذِي يُنْبِئُ بِهِ فِي الأَفْئدَةِ ليعملَ فِيها، فيستجيبَ لها، ويَضبطَ حَركَتَه، وَحركَةَ الجَوارِحِ علَى هَديهِ، وَفِي هَذا عِنايةٌ بِحَقِّ المَعْنَى نَفسِهِ مِنْ أَنّهُ مِنْ أُفُقِ الْغَيبِ المُطلقِ الَّذِي لَا قِبَلَ لأَحدٍ مِنَ البَشَرِ العِلْمُ بِه إلّا بِوَحْيٍ، ومِن أُصولِ الإبانَةِ الفاعِلَةِ أن يَكونَ لِشَريفِ المَعانِي شَرِيفُ النَّظْمُ، كَما هَدَى إِليْهِ أهلُ العِلْمِ بِالبَيانِ العالِي، فَجاءَ بِالتَّركِيبِ مُصْدّرًا بالمُسْنَدَ إِلَيْهِ، مَبْنِيًّا عَلَيْهِ الخَبرُ الفِعْلِيّ، وَهَذا العُدُولُ عمَّا هُوَ الأصْلُ فِي العَرَبيّةِ، إذ الأصْلُ فِيها الجُملةُ الفِعْلِيَّة، لا الإسمِيّة الفعليّة العجز، فالأصْلُ أنْ يَبْدأَ بالفعلِ لا بالفاعِلِ إلَّا لمُقْتَضٍ، فَيَكُونُ العُدُولُ لِتَحْقِيقِ تَقرِيرِ الْخَبرِ فِي فُؤادِ السَّامِعِ لِما لِلْمَعْنَى مِنْ عَظِيمِ الشَّرَفِ فِي نفسِه، وَعَظِيمِ الفَائِدَةِ فِي الْعِلْمِ بِهِ، وَتَمْكِينِهِ فِي النَّفْسِ.

يقُولُ الإمامُ عبْدُ القاهِرِ الْجُرْجَانِيّ (ت: ٤٧١هـ): «لا يُؤتَى بِالاسْم مُعرًّى مِنَ العَوامِلِ إلا لحديثٍ قد نُوِيَ إسنادُه إليْه، وإذا كان كَذلِك، فإن قُلْتَ: عبدُ اللهِ، فقَد أشْعرْتَ قَلْبَهُ بذلِك أنّكَ قَدْ

(١٧) مسند أحمد، برقم: (٦٦٢٦).

أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث، فقلت مثلًا: (قام) ... فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق.

وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلًا، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له؛ لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام»[18].

وفي هذا العدول عن الأصل -فوق تمكين المعنى في الفؤاد- خدمة له في نفسه، فإن فيه خدمة لمتلقيه، وما متلقي بيانك إلا بمثابة ضيفك، فحقه أن تقريه من شريف ما أنعم الله -سبحانه وبحمده- به عليك، فحق عليك مضيفًا ألا تطعمه من بيانك ما يفسد قلبه، كمثل ألا تطعمه من زادك ما يفسد جسده. هما سواء: طعام القلوب وطعام القوالب[19].

والعرب تجعل حسن الحديث في نفسه وفي أدائه من أدب الضيافة، وحسن القرى يقول الشاعر:

لِحافي لِحافُ الضيفِ والبيتُ بيتُه
وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزالٌ مُقنَّعُ

أُحدِّثُه إنّ الحَديثَ من القِرى
وتَكلأُ عَيْني عَيْنَه حِينَ يَهْجَعُ

ويقولُ الآخر:

أُضاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إنْزالِ رَحْلِهِ
وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ

وَمَا الْخِصْبُ لِلأَضْيافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقِرَى
وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

(١٨) دلائل الإعجاز، قرأه محمود شاكر، ص: ١٣٢ فقرة: ١٢٨، ١٢٩.

(١٩) في الإعراب عن الزائر بـ (الضيف) في العربية إنباء بأن صاحب الدار أو المحلّ إنما أضافه إلى نفسه وأهله، فهو قد غدا منهم له ما لهم، ولا يؤثر أحد عليه بشيء، فالضيف عندهم أمير المضيّف، وله صدر المجلس، كذلك كان أجدادنا، فهل لك أن تكون بهم برًّا فتتخلق بمحاسن أخلاقهم، وتجعل محاسن الأخلاق -والإيمان وعمل الصالحات منها- هي أهم شيء في الحياة لا غيرها كما يعرف بعض.

استهلاله -صلّى الله وسلّم عليهِ وعلى آلِه وصحبه- بقوله: «الصّيامُ والقرآنُ» ممّا يجعلُ السّامعَ يتشوّفُ إلى العرفانِ بما سيُنبئُ به عنهما، فيأتي الخبرُ والنّفسُ متهيّأةٌ لِلُقياهُ، والأنسُ به، فيتمكنُ فيها، فيعملُ في الفؤادِ ما يُرادُ أن يَعمَلَ فيه، ليضبطَ حركةَ الجوارحِ على وَفقِ ما هو مُتمكّنٌ في ذَلِك الفُؤاد، فإنّ الفؤاد أميرُ الجسَد.

وقدّم «الصّيام» علَى تلاوةِ «القرآن» في قيام اللّيل لِمقتضيَاتٍ عدةٍ، منها:

١- أنّ الصّيامَ هُو العِبادةُ الأشقّ على الأنفسِ ولا سيما إذا اشتد الحرُّ أو القرُّ، وهُو الأطولُ زمنًا، والأخفَى أداءً.

٢- أنّ الصّيامَ نِصفُ الصّبرِ، كما جاءَ في جامعِ التّرمِذيّ في كتاب: (الدّعوات) بسندِه «وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»[٢٠]، والصبرُ عمود الأمْر في إنجازِ الأعْمالِ الصّالحاتِ المُصلِحاتِ.

٣- أنّ الصّيامَ زكاةُ الجسَدِ، كَما رَواه ابْن مَاجَةْ فِي سُنَنِهِ: كتاب (الصّيام) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عنه-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ»[٢١].

٤- أنَّ الصِّيامَ هُو العِبادَةُ الّتِي اختصَّها الله -تعالَى- فَجعلَها لَه، رَوى الشّيْخانِ البُخاريّ فِي كتابِ: «الصّوم»، ومسْلمٌ في كتاب: (الصّوم) كلٌّ بِسَنَدِهِ عن أبي هُرَيْرَةَ -رَضيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ...»[٢٢].

٥- أنَّ الصّيامَ فريضةٌ كُتِبَتْ علَى المُسْلِمين، كمَا كُتِبَتْ علَى الأُمَمِ السَّوابقِ، فَهِيَ العِبادَةُ الإنْسانِيَّةُ العامّةُ مُنْذُ سيّدِنا آدَم عَليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)

٦- أنَّ الصّيامَ هُو الفَريضةُ، بيْنا قيامُ اللّيْلِ بِالقُرآنِ فِي الصّلاةِ ليْس بِفَريضةٍ بلْ نفِيلةٌ، يلْزَمُها الأَوّابُونَ.

رَوَى التّرمِذِيّ في جامعِهِ فِي كِتابِ (الدّعواتِ) بسندِه عَنْ بِلالٍ -رَضيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»[٢٣].

(٢٠) سنن الترمذي، برقم: (٣٥١٩).

(٢١) سنن ابن ماجه، برقم: (١٧٤٥).

(٢٢) متفق عليه، البخاري، برقم: (١٩٠٤)، ومسلم، برقم: (١١٥١).

(٢٣) سنن الترمذي، برقم: (٣٥٤٩).

وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»(٢٤).

ويأتيك الخبرُ الَّذي إِلَيْهِ تَتَشَوَّفُ النفسُ وبِهِ تأنَس جُملَةً فِعْلِيَّةً: «يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والشفاعةُ إنّمَا هِيَ توَسلُ ذِي مَنزلَةٍ عِندَ مَنْ يُشفعُ عِنْدَهُ لِمَنْفَعَةِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، بِرَفْعِ ضُرٍّ مستحقّه الوقايةِ منْهُ قبلَ وقوعِهِ، أَوْ تحقيقِ إصابةِ خيْرٍ.

أوْ كَما يقُول أبو الحَسَنِ الحَرَالي(٢٥): «الشّفاعَةُ وُصْلَةٌ بيْنَ الشّفيعِ والمَشْفوعِ لَهُ لِمزيدِ وُصلَةٍ بيْنَ الشّفيعِ والمَشفوعِ عِندَه»(٢٦).

ولَا يَلزمُ تَحقّق (الصّيام) وَتحقّق القِيام بِالقُرآنِ فِي الصّلاةِ ليلًا كيْما تكون الشّفاعَةُ، بلْ إذا صَامَ العَبْدُ الفَرِيضَةَ عَلَى الوجهِ الأتمّ وصلّى الفرائضَ، كانَ لَهُ مِن الشّفاعَةِ نَصِيبٌ، وَلَا يَرضَى بالأدْنَى إلّا ساقِطُ الهِمّة، فإنَّ سَيّدنا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ وسلم عَليْه وعَلى آلِه وصَحبه قد حثّنا عَلَى أن يكونَ كلٌّ عَلِيَّ الهِمَّةِ، لا يَرْضَى بغيرِ الفِرْدَوسِ مِن الجنّة.

رَوَى البُخارِيُّ في كِتابِ (الجِهادِ) بسَندِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِي اللهُ عَنْه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ...»(٢٧).

وَمَنْ قامَ اللّيْلَ كُلَّهُ دُونَ صِيامِ الفَرِيضَةِ، فلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الشّفاعَةِ نَصِيبٌ.

وَفي اصْطِفاءِ الإعْرابِ بقولِهِ: «لِلْعَبْدِ» إيماءٌ إلَى ما يَجِبُ أن يكونَ باعثَه علَى هاتيْن العِبادَتيْنِ، فكُلّ عَمَلٍ لا يَبْعَثُ عَليْه الرّغبةُ الفتيّةُ فِي أن يقومَ صَاحِبُه مَقامَ الْعُبودِيّة لله -سُبْحانَهُ وَتَعالَى- فمَا هُو بالعَمَلِ المُثْمِرِ خيرًا لِصَاحِبِه، فَعلَى العامِلِ قبلَ أن يُباشِرَ فِعلًا أنْ يُحقّقَ فِي نَفسِهِ الرّغبةَ فِي أن يكونَ عبدًا عابدًا قَانِتًا للهِ تَعالَى مُتزلّفًا إلَيْهِ بذَلِكَ العَمَلِ.

(يتْبَعُ إنْ شَاء الله تعالى)

---

(٢٤) سبق تخريجه.

(٢٥) علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي، مفسر، من علماء المغرب، ولد ونشأ في مراكش، ورحل إلى المشرق وتصوف، توفي في حماة بسورية (٦٣٨هـ = ١٢٤١م)، من مصنفاته: الوافي، تفهيم معاني الحروف (الأعلام: ٤/ ٢٥٦).

(٢٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٤/ ٣٢).